

الفصل الخامس

الجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنْفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِن كَفَرُوا فَلَحَنَّا أَعْيُنَهُمْ وَنَضْحَكُوا وَخِشَّ اللَّهُ عَٰنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ جَاهِلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج - الآيات ٣٩ : ٤٠].

١

دخلت الهجرة عامها الثاني، واستقرت الحياة في المدينة، وثبتت العقيدة الإيمانية في نفوس المسلمين من الأنصار، بعدما نزع الله ما في قلوبهم من غل، وألف بين قلوبهم، فأصبح الأوس والخزرج: إخوة متحابين، رحماء فيما بينهم، فهم عون لبعضهم في الضراء قبل السراء، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبَهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنفال - الآية ٦٣]. وكان هذا هو حال الأنصار مع المهاجرين أيضا، وهو ما جعل المدينة آمنة وأمانا وبركة، من فضل الله ورحمته.

وعلى رغم ذلك، لم يتوقف اليهود عن لغوهم، ومحاولة الوقيعة بينهم، والقول والمجادلة بالباطل في دين الله، حسدا وكراهية، ولما يئسوا من فتنة المسلمين، أو الوقيعة بينهم؛ بعثوا رسلهم في كل ناحية، لاستعداد قريش وغيرها من القبائل المحيطة بالمدينة، وتنزل تحذير رب العالمين لنيبه ﷺ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْحَابُ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ١٠٩].

أثار هذا السلوك العدائي من اليهود، غضب كثير من المسلمين، وتحدثوا بذلك إلى رسول الله ﷺ، وتنزل قول الله تعالى: ﴿لَتَسْبُلُوهُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ



۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ

۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ

۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ

۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ

۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ
 ۱۸۱] : ۱۸۱ - ۱۸۲ - [سورۃ

من المدينة واتجهت إلى الأبواء، حيث دفن بيديه الشريفتين، وهو صبي، أمه آمنة بنت وهب، فودعه بنو ضمرة أصحاب المكان، وأعطوه عهدا بالآل ينصروا عليه أحدا، وألا تكون أرضهم موقعا لعدو، أو مكانا تستطلع منه قوة المسلمين بالمدينة من قبل أعدائهم، وعادت السرية دون قتال، وإن كان المسلمون قد كسبوا حليفا جديدا.

ويتوالى إرسال سرايا للاستطلاع، والتدريب، ومتابعة تحركات قوافل قريش، التي تروح وتأتى بين مكة والشام عابرة حدود المدينة، ولتأمين هذه المداخل من أية محاولة للغزو.

ولقد خرجت هذه السرايا بقيادات مختلفة لاكتشاف قدرات القادة، ومنها ما عقد لعبيدة بن الحارث ابن عبد مناف، فلقد خرج مؤمرا على كتيبة قوامها ثمانون من المهاجرين، فالتقوا بجمع عظيم من قريش قدم مستطعا قوة المسلمين بالمدينة بأسفل ثنية المرة، وقد كثر الله عدد المسلمين في نظر المشركين فأصابهم الرعب، وارتدوا مدبرين، ولم يقاتلوا المسلمين على رغم تفوق المشركين عددا وعدة، حتى أنه كان يواجه المسلم الواحد عشرة من المشركين.

وعاد المسلمون إلى المدينة، وقد لجأ إليهم بضعة نفر من المسلمين ممن كانوا مع المشركين، وكانوا قد احصروا بمكة، وهم يكتمون إسلامهم، ولم يستطيعوا الهجرة: مهليلين مكبرين، يحمدون الله على ما أعزهم به، بينما عاد المشركون إلى مكة، يقصون على أهلهم ما أراهم الله من القوة التي أصبح عليها من هاجروا.

.. وفي شهر شعبان من ذات السنة، أكرم الله نبيه محمدا ﷺ، واستجاب لكثرة دعائه، لتكون قبلته كقبلة الخليل إبراهيم عليه السلام، وأن تتحول الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة، فتنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ رَزَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة - الآية 144].

وتحول المسلمون، وجعلوا قبلتهم إلى مكة المكرمة، وتحدث اليهود بكل ما يسئ، وكثر لغطهم، ورد عليهم علام الغيوب، ووصفهم بالسفهاء في قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة - الآية 142].

ثم عقد رسول الله ﷺ لحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، لواء سرية من ثلاثين رجلا من المهاجرين، مضت إلى العيص حيث طريق الساحل الذى تسلكه قوافل قريش إلى الشام، فواجه أبا جهل ابن هشام فى ثلاثمائة من المشركين، وألقى الله الرعب فى قلوب انشركين فنكصوا عن قتال المسلمين، وفروا فرارا، وازدادت خشية قريش، وعظم خوفها من قوة رسول الله ﷺ وصحبه.

كما خرج رسول الله ﷺ فى سريتين، الأولى إلى «بواط»، واستخلف عند خروجه السائب بن مضعون، تدريبا وتعلما لصحابته على الولاية، وكانت سرية الثانية إلى العشيرة، وهناك وادع بنى

ضمرة للمرة الثانية، وكتب رسول الله ﷺ كتابا، قال فيه:

- بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك عهد الله وعهد رسوله.

وإذا كانت كل تلك السرايا لم يتحقق فيها قتال بين المسلمين وأعدائهم من المشركين، فلقد علمتهم السمع والطاعة، وحظمت فيهم إيلافهم.

وفي تلك الأيام من شهر شعبان، فرض الصيام على المسلمين، بعد أن كان تطوعا، ليزيدهم تدريبا على مقاتلة النفس، والصبر على المكاره، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة - الآيات ١٨٣ : ١٨٥].

ومع ثبوت رؤية هلال رمضان وليلتين خلطنا منه، بلغ رسول الله ﷺ خبر قافلة ضخمة بقيادة أبي سفيان، كانت عائدة بتجارة لقريش من الشام في ألف بعير، فبعث ﷺ بطلحة بن عبد الله التيمي وسعيد بن نفيل، ليتحسبا أخبارها.

٣

اليوم: السبت الثاني عشر.

الشهر: رمضان.

السنة: الثانية من الهجرة.

هذا مشرق بدر الكبرى، يوم الفرقان، وعلى رغم مرور ما يقرب من عشرة أيام، لم يعد الرسولان اللذان خرجا لاستطلاع قافلة أبي سفيان، وعزم رسول الله ﷺ على ألا ينتظر عودتهما، فجمع أصحابه، وقال لهم:

- هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

وظن المسلمون أن رسول الله ﷺ لا يقصد قتالا، وإنما يحفز المهاجرين ليستردوا أموالهم التي انتهبها قريش، فاستجاب البعض للدعاء، وتناقل البعض الآخر من الذين هان عليهم ما خلفوا وراءهم

فى قرىش، مفضلين ما وعدهم به الله من جزاء أوفى، وإن خرج مع رسول الله ﷺ الأنصار لأول مرة، فلقد كانت السرايا الأولى جميعها من المهاجرين، فكان تعداد من خرجوا ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلا، ولم يخرج معهم عثمان بن عفان، لاشتداد المرض على زوجه رقية بنت محمد بن عبد الله ﷺ، ولم يكن لرقية خادمة ترعاها.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبيابة الأنصارى أميرا لها، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالمسلمين، ثم سار بجند الله، وليس معهم إلا ثلاثة أفراس، وسبعون بعيرا، فكان يتعاقب كل ثلاثة منهم على ركوب البعير الواحد، وكذلك كان يفعل رسول الله ﷺ: وعلى بن أبى طالب، ومرثد بن أبى مرثد، فقالا للحبيب ﷺ:

- نحن نمشى عنك يا رسول الله، وتظل أنت راکبا.

فقال لهما رسول الله ﷺ:

- ما أنتما بأقوى منى على المشى، ولا أنا بأغنى عنكما عن الأجر.

وتواصل مسير جيش المسلمين، حتى نزل فى بيوت السقيا خارج المدينة، فعسكر بها، وعندما أذن لصلاة المغرب، أمر نبي الله ﷺ المسلمين بالشرب من مائها وشرب معهم، ثم توطأ واستقبل القبلة وكبر وتوجه إلى السماء، وقال:

- اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك، دعاك لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم، مثلما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين.

ويعد أن انتهى رسول الله ﷺ من صلاته، ثم إفطاره، لبس درعه، وتقلد سيفه، واستعرض المقاتلين، ودعا لهم قائلا:

- اللهم إنهم حفاة فاحملهم، عراة فاكسهم، جياع فأشبعهم، عالة فأغنهم من فضلك.

ولما رأى رسول الله ﷺ بين الجند بعض الضعفاء والغلمان، أمر بربدهم إلى المدينة، ولكن «عمير بن أبى وقاص» بكى - وكان ابن ستة عشر عاما - فرق له قلب الحبيب ﷺ فأجازه.

كما رأى بين الجند «حبيب بن أساف»، فرفض مشاركته فى الحرب، لأنه كان على غير دين الإسلام، وقال:

- لا يصحينا إلا من كان على ديننا.

فأعلن «حبيب» إسلامه، وضمه رسول الله ﷺ إلى الجند، وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم، وكان لون اللواء أبيض، وكانت فى المقدمة رايتان لونهما أسود وهما أصغر قليلا من اللواء، إحداهما مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، والثانية مع سعد بن معاذ رضى الله عنه، وعين على المشاة، وهم مؤخرة الجيش، قيس بن أبى صعصعة.

وصل جيش المسلمين إلى بئر الروحاء يوم الاثنين، ورد رسول الله ﷺ اثنين من المرضى إلى المدينة، وصحبهم الحارث بن حاطب العمري فلقد ولاه نبي الله ﷺ على بنى عمرو بن عوف، بعد أن بلغه

عنهم، ما جعل الشكوك تساوره منهم.
وبعد أن استراح الجند، عادوا إلى السير قاصدين بدرا.

٤

وعلم أبو سفيان بأمر خروج المسلمين لحصار قافلته، وكان ذا دهاء وحكمة، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة ليستثير همة رجالها ليهبوا إلى نجدته، بعد أن أجزل له العطاء وأمره أن يدخل على قريش في حال ذرية حتى يستثير حماسهم.
وبعد ذلك سلك أبو سفيان طريقا مغايرا للطريق الذي اعتاد أن يسلكه، مبتعدا بالقافلة عن بدر، وأخذ يستحث العير ويسرع بها إلى طريق البحر، ليقلت من المسلمين.

وحين وصل جيش المسلمين إلى ذفران، بلغ رسول الله ﷺ أن عير قريش قد نجت من الحصار، وأن قريشا قد استنفرت، وأن القرشيين قد خرجوا إليهم في نفر كبير، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، وقال:

- إن القوم قد خرجوا إليكم من مكة على كل صعب وذلول مسرعين، فما تقولون: العير أحب إليكم من النفير؟
فقال بعضهم:

- يا رسول الله امش بنا إلى العير، فإننا إنما خرجنا لها، هلا ذكرت لنا القتل حتى نتأهب.
وتغير وجه رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن القول، ثم تبعه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فقال:

- يا رسول الله إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، وسوف يقاتلونك بكل قوة، فتأهب لذلك أهبتة، وأعد لذلك عدته.
ثم قام المقداد بن عمرو فقال:

- يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هنا قاعدون؛ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك حتى تبلغه.
فدعا رسول الله ﷺ للمقداد بخير، ثم اتجه إلى جموع المسلمين قائلا:
- أشيروا على أيها الناس.

فنهض سعد بن معاذ وقد أدرك أن رسول الله ﷺ إنما يريد كلمتهم هم: الأنصار، وقال:
- أنا أجيب عن الأنصار يا نبي الله، فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله نا أردت، فو الذي

بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، أظعن حيث شئت، وصل من شئت، واقطع من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت؛ والذي نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط وما لى به من علم، وما نكره أن نلقى عدونا، وأنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

أشرق وجه رسول الله ﷺ بنور الرضا بمن نصره، وقال:

- سيروا على بركة الله، وابشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم؛ والله لكأنى الآن أنظر مصارع القوم.



هب جهيم بن الصلت بن عبد المطلب من غفلته فزعا، فقال لقريش:

- إنى بين النائم واليقظان، إذ أنظر إلى رجل قد أقبل على فرس، ومعه بعير له، حتى وقف عليه، ثم قال: قتل عتبة وشيبة بن ربيعة، وأمىة بن خلف، وأبو البحترى، وأبو الحكم بن هشام. واستطرد يعدد أسماء رجلا من أشرافهم أعمل فيهم القتل، وعدد رجال آخرين تم أسرهم، ثم قال: - ولقد رأيت الرجل ضرب لبة بعيره بسلاحه، فتفجر منها الدم فأرسلها فى العسكر تجرى، فما بقى خباء من أخبيتنا إلا أصابه منها دم.

أصابت قريش فزعة عظيمة مما سمعت، فلقد سبقت رؤية جهيم، رؤية أخرى لعاتكة بنت عبد المطلب، تحققت بوفود رسول أبى سفيان يستنفر القوم، وأراد أبو جهل أن يذهب الروع عن صحبه، فقال متهمكا من رؤيا جهيم:

- هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غدا إن نحن التقينا من منا المقتول، نحن أو محمد وأصحابه.

لما اطمان أبو سفيان على نجاة غيره من أيدى المسلمين، أرسل إلى من خرجوا من قريش، كتابا يقول فيه: لا حاجة إلى مجيئكم فأرجعوا.

فلما وصل كتابه، قال أبو جهل:

- والله لا نرجع حتى نحضر ماء بدر، فنقيم عليها ثلاثة أيام ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بنا قبائل العرب وبسيرنا وجمعنا.

بينما أشار الأحنس بن شريق على قومه من بنى زهرة بالرجوع، قائلا:

- يا بنى زهرة، قد نجى الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم وما معه، ولم تبق لنا حاجة فى أن تخرجوا من غير منقعة، فاجعلوا الرأى لى، ولا تسمعوا قول أبى جهل.

وحاول أبو جهل أن يثنى الأحنس عن رأيه، لكن الأحنس ذكر له مقولة رسول الله ﷺ بمصارع

الأقوام، ثم سأله، قائلا:

- باللات والعزى أترى محمدا يكذب؟!.

قال أبو جهل:

- ما عهدنا عليه وهو بين أظهرنا أنه كذب قط، وكنا نسّميه الأمين، ولكن إذا كانت في بنى عبد المطلب السقاية والقيادة، ثم تكون فيهم النبوة، فأى شيء قد تبقى لنا؟!.

ولم يستجب له الأخنس ورجع ببني زهرة، وتبعهم بنو عدى، فكان مجموع من عادوا إلى مكة وتركوا معسكر الشركين ثلاثمائة رجل.

٦

عسكر المسلمون بالقرب من بدر، وارتحل رسول الله ﷺ يصحبه أبو بكر فابتعدا عن المعسكر، يتحسان الأخبار فالتقيا بشيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال الشيخ:

- لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟!.

فقال رسول الله ﷺ:

-- إذا أخبرتنا أخبرناك.

قال الشيخ:

- نعم، ذاك بذاك، بلغنى أن قريشا خرجوا من مكة يوم كذا، فإن صدقتى الذى أخبرنى، فهم الآن بقرب بدر، وبلغنى أن محمدا وصحبه قد خرج من يثرب يوم كذا، فإن صدقتى الذى أخبرنى، فهم الآن بالقرب من بدر، فممن أنتما؟.

قال رسول الله ﷺ:

- من ماء.

ثم انصرف ومعه أبو بكر عائدين، فظن الشيخ أنهما من ماء العراق.

وفى المساء، بعث رسول الله ﷺ عليا والزيير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر ليتقصوا الأخبار، فعثروا بغلامين يرتوون مع نفر من قريش، فأمسكوا بالغلامين، وعادوا بهما، وسألوهما رسول الله ﷺ يلقى، من يكونان فقالا: إنهما غلامان لبنى الحجاج وبني العاص، فقالوا:

- وماذا كنتما تعملان.

قالا:

- نحن سقاة قريش، بعثتنا لنستقى لهم.

فقالوا للغلامين:

- بل أنتم لأبى سفيان وتستقيان لغيره.

وأنكر الغلامان ذلك، فضرباهما، فلما أوجعهما الضرب، قالوا:
- نحن لأبي سفيان.

وكان رسول الله ﷺ قد انتهى من صلاته، فدفعوا إليه الغلامين، فقال لهم:
- إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؛ والله لقد صدقا، إنهما لقريش.
ثم قال رسول الله ﷺ للغلامين:
- أخبراني عن قريش؟.

قالوا:

- هم وراء هذا الكتيب بالعدوة القصوى.
فقال لهما:

- كم القوم؟.

قالوا:

- كثير عددهم.

قال:

- وما عدتهم؟.

قالوا:

- لا ندري.

قال:

- كم ينحرون من الإبل كل يوم؟.

قالوا:

- يوما تسعا، ويوما عشرا.

فنظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وقال:

- القوم ما بين التسعمائة والألف.

ثم قال للغلامين:

- فبن فيهم من أشراف قريش؟.

وراح الغلامان يرددان أسماء أشراف قريش، ولما انتهيا، قام رسول الله ﷺ لأصحابه، وقال:

- هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها.

كان جيش المسلمين قد نزل في العدوة الدنيا، وهي ذات تراب كثير ورمال ناعمة، فعضش المسلمون،

واشتد بهم العطش، حتى هدم هدا، قال بعضهم:

- أتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم عطاش، حتى إذا

ضعفتم هجموا عليكم وقتلوكم.

وقدمت السحب تتري، وأعتمت السماء، ثم أنزل الله مطرا فجاجا، أطفأ الغبار ولبد الأرض، وشرب المسلمون وسقوا الركائب، واغتسلوا، فطابت أنفسهم، وهدأت وساوس الشيطان؛ وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم، ثم غلبهم النعاس فناموا ليلتهم نوما عميقا؛ بينما تحركت السحب إلى حيث أقام المشركون، فاشتد المطر وتواصل، وأبرقت السماء وأرعدت، فذعروا وأصابهم الخوف والفرع. وأمر رسول الله ﷺ فنودي للصلاة، وبعد انتهائها، وقف فيهم خطيبا، فقال بعد أن حمد الله تعالى:

- فإننى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق، لا يقبل الله فيه أحدا إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر فى مواطن البأس يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم، وتدركون النجاة فى الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شىء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [سورة غافر - الآية ١٠]. انظروا الذى أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم به بعد ذلك، فاستمسكوا به، يرض به ربيكم عنكم، وابلوا ربيكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه ألقانا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لى وللمسلمين.

وأمر رسول الله ﷺ بالجيش أن يتقدم إلى أقرب مكان من بئر بدر، فينزل بها، فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح، فقال:

- يا رسول الله، أهدا المنزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟.

قال نبي الله ﷺ:

- بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

قال الحباب:

- يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزّل به، فإنى أعرف عذوبته وكثرته، ثم نبئى عليه حوضا فنملأه ونقذف فيه الآنية، ونغور ما سواه من الآبار، لئلا يأتوها من خلفنا فيشربوا، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا.

فقال رسول الله ﷺ:

- لقد أشرت بالرأى يا حباب.

ونهض بمن معه من جنود الله، وعمل بما أشار حباب، ونبات ليلته يصلى عند جذع شجرة قطع أعلاه.

فلما أصبح الصبح..

وانتهى المسلمون من الصلاة، وجلس سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ، وقال له:
 - يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلى عدونا، فإن أعزنا الله،
 وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلاحقت بمن
 وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى
 حربا، ما تخلفوا عنك، يمنحك الله بهم، ينصحتك ويجاهدون معك.
 وتقبل رسول الله ﷺ ما قاله «سعد» قبولا حسنا، ودعا له، ونهض سعد إلى العمل، فتخير
 تلا يشرف على ساحة القتال، وبنى فوقه العريش من سعف النخيل.

٧

بعث رسول الله ﷺ بعمر بن الخطاب إلى قريش، وطلب منه أن يقول لهم:
 - ارجعوا، فإنه إن يلي هذا الأمر منى غيركم، أحب إلى من أن تلوه منى، وإن ألبه من غيركم،
 أحب إلى من أن يكون إليه منكم.
 ونا سمع المشركون ما حمله إليهم عمر، قام من بينهم حكيم بن حزام، وقال:
 - قد عرض محمد نصفا فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من الإنصاف.
 واغتاظ الشيطان من ميل الناس للمسلمة والسلام، ولم يعجبه الحال، فوسوس لأبى جهل حتى
 أغضبه، فانتفض يرد على حكيم منكرا، وقال:
 - والله لا نرجع بعد أن أمكنا منهم.
 وعاد عمر رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ، ليعلم رفض قريش للمسالمة.
 ولم يكف الشيطان عن النفخ فى النار التى أوقدها فى نفوس المشركين، بل زين لهم أن يؤكدوا
 رغبتهم فى القتال، وإعراضهم عن المسالمة وهم أهل القوة والكثرة، والأقدر على الانتصار، وفح قائلا:
 - لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم.
 واستشاط المشركون غرورا، واندفعوا يسمعون إلى حوض الماء الذى أحاط به المسلمون، حتى وردوا
 الحوض ليعبوا من مائه، وسارع المسلمون لمنعهم، ولكن نبي الله ﷺ، قال لهم:
 - دعوهم، فلا يشرب منهم أحد إلا هلك.
 ثم بعثت قريش أبا سلمة الجشمى، ليستطلع حال المسلمين ويقدر عددهم، فأخذ يصول ويجول
 بفرسه عن مبعده، وبعد وقت ليس بالقليل، عاد يقول:
 - هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر إذا كان لهم كمين
 أو مدد.

وانطلق بفرسه ثانية، وراح يجوس فى الوادى باحثا، ورجع إليهم يقول:
 - والله ما رأيت جددا ولا عددا ولا حلقة ولا كرها، ولكنى رأيت قوما لا يريدون أن يعودوا إلى
 أهلهم، قوما مستميتين، ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت

الجحف، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلا منكم، فقرؤا رأيكم.
فلما سمع حكيم بن حزام ما قيل، مشى في الناس ليرجعوا عن حرب محمد، حتى أتى عتبة بن
ربيعة، وقال له:

— يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك في أمر تذكر فيه بخير حتى
آخر الدهر؟.

قال عتبة:

— وما ذاك يا حكيم؟.

قال حكيم:

— ترجع بالناس، وتتحمل أنت دية عمرو الحضرمي.

وكان عمرو قد قتل في إحدى السرايا التي أخرجها رسول الله ﷺ، قال عتبة:
— قد فعلت، وأنت شاهد على بذلك، ولكن عليك بأبي جهل فإني لا أخشى أن يخالف بين
الناس غيره.

وذهب حكيم ليجت من أبي جهل، بينما وقف عتبة يخطب في الناس، قال:

— يا معشر قريش، لا تصنعوا شيئا لمحمد وأصحابه، والله لئن نتصر عليه، لا يزال الرجل منكم
ومنهم ينظر في وجه الرجل الذي قتل أخاه، أو ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته فيندم،
وإن انتصروا عليكم كانت الطامة الكبرى، ورأيت أن ترجعوا وتخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن
أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك أفاكم وحدكم لم تتعرضوا له بسوء.

ولما عثر «حكيم» بأبي جهل، عرض عليه العودة، وما رأى عتبة من افتداء لعمرو، فارتعب الشيطان
مما عرض حكيم رعبا شديدا، وثار ومار، وقال أبو جهل بلسان الشيطان، وقد أصبح على نفس حاله
من الثورة والغضب:

— جين والله عتبة حين رأى محمدا وأصحابه، كلا، واللات والعزى، لا نرجع حتى يحكم الله بيننا
وبين محمد، وما قال عتبة ما قال إلا خوفا على ابنه الذي يقاتل في صفوف المسلمين.
وبعث أبو جهل إلى عامر الحضرمي شقيق عمرو، فلما جاءه عامر، نفخ الشيطان في النار،
وقال له:

— هذا عتبة حليفك، يريد أن يرجع بالناس بعد أن رأى أخذ ثأرك علينا سهلا.

ونفث الشيطان، فانتفض عامر وقد أهوسه الغضب، ورمى بقوسه ودرعه، وحشى التراب على رأسه،
وأخذ يجأ صارخا في وجوه المشركين، يقول:

— وا عمراه، وا عمراه.

أشار ما فعل عامر حمية الجاهلية في قريش، وتنادوا إلى القتال، وخفت صوت العقل والحكمة،
وخرج من بينهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وقد اشتدت حميته وتمكن منه الشيطان، وأقسم أنه
سيرد ماء المسلمين أو يهلك دونه، واندفع مهبوسا يجرى إلى معسكر المسلمين، شاعرا سيفه مناديا

للمبارزة، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه بضربة من سيفه فبتر ساقه، ثم ضربه ضربة ثانية أهلكت المشرك.

وكبر المسلمون وهللا للنصرة الأولى، وقال نبي الله ﷺ، وقد أرى الغيب:
- والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم..

ثم أخذ نبي الله ﷺ، يشير بيده إلى أماكن محددة من الأرض، ويقول:
- هذا مصرع عتبة، وهذا مصرع أمية، وهذا مصرع أبي جهل، وهذا مصرع فلان، وفلان...
وراح نبي الله ﷺ يعدد أسماء المشركين الذين سيقتلهم الله ببدر، ويحدد الأماكن التى سيهلك فيها كل واحد منهم، وكان ذلك ليلة الجمعة.

٨

ولما أشرق صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، أعلن رسول الله ﷺ إباحة الإفطار للصائمين، وبدأ بنفسه فأكل كسرة من الخبز وتبلغ بالماء، وتبعه المسلمون، ثم أخذ يصف الجند ويناديهم بالاسم، ليأخذوا مواقعهم مستويين متلاصقين، وقد جعل الشمس خلفه، وبينما هو ينظر إلى الصفوف لمح سواد بن غزية، وقد تقدم الصف ببضع خطوات، فدفعه فى صدره برفق، وقال:
- استويا سواد.

قال سواد متأثراً:

- أوجعتنى يا رسول الله.

فتألم رسول الله ﷺ من قولة سواد، وكشف عن صدره، وقال:

- رد ضربتى يا سواد.

واندفع سواد من الصف، إلى حيث وقف رسول الله ﷺ، واحتضنه، وأخذ يلقى وجهه بصدرة ويقبله. وهو يبكى فى وجد، وسأله رسول الله ﷺ، قائلاً:

- ما حملك على ما صنعت يا سواد؟!.

قال سواد، وقد غسل الدمع وجهه:

- يا رسول الله، ونحن فى هذا الموقف، توقعت أن أقتل، فأردت أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن يمس جلدى جلدك، وأن أعتنقك.

فى مودة، مسح رسول الله ﷺ على رأس سواد، ودعا له بالخير.

ثم دفع ﷺ برايته إلى مصعب بن عمير، وأمره فوضعها حيث أشار وذهب رسول الله ﷺ إلى العريش، فاستقبل القبلة، ورفع ذراعيه، وراح يدعو الله ويستنصره، قائلاً:

- اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم أتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض.

فما زال يهتف بربه، حتى سقطت عبايته عن كتفيه، فلما دخل أبو بكر ورأى الحبيب على هذا

الحال من شدة الضراعة، رد العبادة على منكبيه، وأخذ بيده، وقال له مخففاً:
 - يا نبي الله كفأك تناشد ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.
 وخرج رسول الله ﷺ من العريش ليطلع على المشركين، فلما رأى كثرة عددهم وعتادهم، عاد إلى العريش، فصلى ركعتين، وعن يمينه أبو بكر رضى الله عنه، وتوسل إلى الله تعالى قائلاً:
 - اللهم لا تودع منى، اللهم لا تخذلنى، اللهم أنشدك ما وعدتنى.
 وخرج عتبة بن ربيعة وعن يمينه أخوه شيبه وعن يساره ابنه الوليد، قاصدين معسكر المسلمين، منادين للمبارزة، فخرج إليهم فتية من الانصار، فلما اقتربوا منهم سألهم عتبة:
 - من أنتم؟
 قالوا:
 - رهط من الأنصار.
 قال عتبة:
 - أكفاء كرام، ليس لنا بكم حاجة، فارجموا وأخرجوا إلينا أكفاء من قومنا وأبناء عمنا.
 بلغ الأمر رسول الله ﷺ، فنزل من العريش، وطلب أن يرجع من تقدموا للمبارزة، ثم ذهب إلى حيث تجمع المسلمون، وقال:
 - يا بنى هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، قم يا على، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.
 فقاموا مسرعين، فلما دنوا من المشركين سألهم عتبة من يكونون، فعرفوا بأنفسهم، فقال عتبة:
 - نعم، أكفاء كرام.
 وتبارز ثلاثتهم، فسرعان ما قتل حمزة رضى الله عنه شيبه، فكبر المسلمون، ونزل الرعب والشؤم فى قلوب قريش وازدادوا فزعاً، لما رأوا علياً يجندل الوليد، ثم كر حمزة وعلى على عتبة فقتلاه، بعد أن تمكن من عتبية فجرحه، وارتفعت كلمة النصر:
 - الله أكبر.
 وحمل عبيدة جريحاً إلى العريش، وأفرشه رسول الله ﷺ ساقه، فنظر طويلاً فى وجه الحبيب، ثم قال متسائلاً:
 - يا رسول الله، إذا مت من جرحى هذا، أأنت شهيداً؟
 قال رسول الله ﷺ:
 - أشهد أنك شهيد.

وتواجه الجمعان، فرفع رسول الله ﷺ وجهه وذراعيه إلى السماء، وقال:
 - اللهم إنك أنزلت على الكتاب، وأمرتنى بالقتال، ووعدتنى إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف

الميعاد؛ اللهم هذه قريتي قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتني، اللهم أحنهم الغداة.

وتنزل قول العزيز القدير: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَأِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ ﴿٩﴾ [سورة الأنفال - الآية ٩].

فكان المسلم لا يرى المشركين إلا قلة، وكذلك كان حال المشركين؛ فلما التحم الجيشان، وجدت قريشا المسلمين وقد تكاثرت عددهم، بما لا قبل لهم به، فتنزل الرعب فى قلوبهم، ولما اشتد القتال، غادر رسول الله العريش، ونزل إلى المسلمين يشحذ همهم، ويقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٣٣]. ثم يستطرد ﷺ قائلا:

- والذى نفس محمد بيده، لا يقاتل اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة.

قال له عمير بن الخمام، وبيده تمرات يأكلهن:

- يا رسول الله، أما بينى وبين أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلنى هؤلاء.

قال الصادق الصدوق ﷺ:

- نعم.

فرمى عمير بالتمر من يده، وقال:

- والله لئن حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة.

واستل سيفه، ورمى بنفسه فى خضم المعركة يقاتل فى سبيل الله.

وتناول رسول الله ﷺ حفنة من الحصى، ورمى بها فى وجوه قريش، وقال:

- شاحت الوجوه، اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم.

ثم نادى المسلمين، قائلا:

- شدوا.

واقترب المسلمون بعضهم من بعض، وتلاحموا، حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا،

إعمالا لأمر ربهم سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بِنِينَ

مَرْرُوصٌ﴾ ﴿٤﴾ [سورة الصف - الآية ٤].

ثم اندفعوا إلى لقاء المشركين، واتجه رسول الله ﷺ إلى العريش، يتبعه أبو بكر، وأخذ ﷺ

يدعوره:

- اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض، اللهم أنشدك وعدك وعهدك.

وأبو بكر رضى الله عنه يقول واثقا:

- يا نبي الله، إن الله منجز ما وعدك، والله لينصرك الله، وليبيضن وجهك.
وارتعد رسول الله ﷺ، ثم أفاق فقال مستبشرا لأبي بكر:

- أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثنايا النقع.
وهبت ريح خفيفة، ثم اشتدت الريح، ثم زادت اشتدادا وقوة، ويقال: إنها كانت حركة الملائكة
تنزل بأمر ربها، لتحارب مع المسلمين، وثبت فؤادهم: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ
فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ [سورة الأنفال - الآية ١٢].

مع غروب الشمس انهزم المشركون، وقتل منهم سبعون كان منهم كل من عدد رسول الله ﷺ
مصرعهم، كما أسر سبعون، ونكص الشيطان على عقبيه، وفر قائلا للمشركين:
- إنني برئ منكم.

ونا جمعت جيف من هلك من المشركين؛ تم دفنها في القليب، وقد وقف رسول الله ﷺ عليهم،
ونادى قائلا:

- يا أهل القليب، يا هيبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل
ابن هشام، يا..

وأخذ رسول الله ﷺ يعددهم اسما اسما، ثم قال:

- بنس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وأخرجتموني وأوانى الناس، وقاتلتوني
ونصرتني الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ريكم حقا؟..
فقال عمر بن الخطاب:

- يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا أجيغوا ولا أرواح فيها؟!.
قال رسول الله ﷺ:

- ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا.

وراجع المسلمون قتلاهم فكانوا ثلاثة عشر شهيدا، من بينهم الصبي: عمير بن أبي وقاص، وعمير
ابن الخمام.

ومكث رسول الله ﷺ ببدر ثلاث ليال، جمعت فيها الغنائم، وكانت مائة وخمسين بعيرا، وعشرة
أفراس، ومتاعا وسلاحا وثيابا..

وقد اختلف المسلمون في اقتسام الغنائم، فقال الذين قاتلوا العدو:

- والله لولانا ما أصبتم الفىء.

وقال الذين سعوا في جمعه:

- هو لنا فلقد عنتنا في جمعه.

وقال الذين قاموا على حراسة رسول الله ﷺ :
- والله ما أنتم بأحق به منا.

فنزل قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [سورة الأنفال - الآية ١].
ولما سمع عبادة بن الصامت ما تنزل من قول الله، قال آسفا:

- نزلت سورة الأنفال فينا معشر أهل بدر حين اختلفنا في النفل وساءت أخلاقنا، فانتزعها الله من أيدينا وجعله إلى رسوله ﷺ.

عاد رسول الله ﷺ بجيشه إلى المدينة، وقد صحب معه الأسرى والغنائم، ولما مالَت الشمس للغروب تخطى مضيق الصفراء، ونزل بكثيب حيث مات عبيدة بن الحارث متأثرا بجراحه، فصلى عليه ودفن هناك، وفي نفس المكان، تنزل قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ أَلْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة الأنفال - الآية ٤١].

فأمر رسول الله ﷺ بالغنائم لتقسم، ثم أمر أن تقسم أربعة الأخماس على أهل بدر، فقال سعد ابن معاذ:

- يا رسول الله، أعطى فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطى الضعيف!؟!

قال نبي الله ﷺ:

- وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟.

وانطلق البشير إلى المدينة بخير النصر، فوجد أهلها قائمين على دفن رقية بنت رسول الله. رضى الله عنها، فلما انتهوا، خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ، بمثل الحفاوة والفرحة التي استقبلوه بها يوم وفد عليهم لأول مرة.

١٠

حمل أول من عاد من أرض القتال، خبر الهزيمة إلى مكة، قبل أن تصل فلول جندهم، فأصاب أهلها حزن شديد، وإن لم يصدقوه لهول ما قال، ثم بدأت شراذمهم تقبل، فتدافعوا يتحسسون فلذات أكبادهم بين من فروا، فلم يجدوهم، وسمعوا أبا سفيان بن المغيرة يقول لأبى لهب وهو كبيرهم:
- والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، ومع ذلك لا ألوم من همزوا، فلقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق، لا يقف أمامهم شيء ولا يبكون على شيء.

وهنا انطلق الحزن يجار بين الشعب والأحياء، ومات أبو لهب بعدها بسبعة أيام منبوذا فقد دهمه

الطاعون كما دهم من قبله أبرهة الأشرم، فتباعد عنه بنوه ثم دفعوا جيافته بالعصى إلى أن أسقطوه في حفرة، ثم أهالوا عليه التراب، وظل النواح والبكاء على قتلى قريش قائما لا ينقطع لمدة شهر.

ولما تدبر العقلاء من قريش أمرهم، قالوا:

-- لنكف عن النواح، حتى لا نشمت فينا محمدا.

ثم أدركوا أن العير التي عاد بها أبو سفيان مازالت تحمل تجارتهم، فتعاقدوا على أن يكون عائذ ربيحها جديعه من أجل قتال محمد وصحبه ثارا لقتلهم.

وبدأ القرشيون بفداء الأسرى، وكان من بينهم زوج زينب بنت رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع، ولم يكن صاحب مال، فأرسلت زينب رضى الله عنها بقلادة كانت قد أهدتها لها أمها السيدة خديجة رضى الله عنها عند زواجها، فرق لها قلب رسول الله ﷺ وطلب من أصحابه أن يعتق «أبو العاص» وترد القلادة لصاحبتها فوافقوه، على أن يرد زينب إلى أبيها، فهي محصورة في مكة، بعد أن فرق بينهما عدم دخول زوجها في دين الله.

وانتهى صيام رمضان بثبوت رؤية الهلال لمن خرجوا يستظلمونه، وعند شروق شمس غرة شهر شوال، أذن بلال للصلاة، وأم رسول الله ﷺ جموع المسلمين لأول مرة، ليصلوا صلاة عيد الفطر، ولما انتهوا، خطب فيهم، وبين لهم مشروعية زكاة الفطر، وحضهم على إخراجها.

وبعد أيام، دخل رسول الله ﷺ بعائشة بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنه، وكان قد بنى لها دارا، بجانب داره الأولى، لصق المسجد.

أما «أبو العاص» فعندما عاد إلى داره، جهز زينب رضى الله عنها ثم أرسلها إلى المدينة، وفاء لما عاهد عليه رسول الله ﷺ، وفي غفلة من قريش التي أصبح همها الذى يهيم أهلها بالليل والنهار، وشغلها الشاغل: تأليب قبائل العرب، على محمد ﷺ وقومه، وخرجت رسلهم إلى كل جهة، يقودهم أحكم حكمائهم، وزعماء سفرتهم: فتوجهوا إلى تهامة وكنانة والأحابيش وغيرها من القبائل، يستنصرونهم ويستنفرونهم، ويخوفونهم من زيادة نفوذ محمد في المدينة وما حولها، ويتمثلون بما هو واقع، فلقد أصبح محمد يمسك بزمام تجارتهم ويتحكم فيها، بتحكمه في طرقها إلى اليمن والشام، كما أن هناك خطورة من انتشار دين محمد وفكره، لأن فيه اندحارا كاملا لنفوذ السادة، ومساواة بين الجميع، وضياعا لجبروت الأنساب والأحساب، المتسلط على رقاب العباد من الضعفاء، فرب محمد قال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات - الآية ١٣].

ومحمد ﷺ هو من قال:

-- لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

فماذا ينتظرهم جميعا بعد هذا إلا الأقول والضياع!!!.